أوضاع اليهود في أسبانيا قبل الفتح الإسلامي

الأستاذ الدكتورجواد مطر الموسوي
رئيس جامعة واسط

توطئة

تتناول هذه الدراسة بالعرض والتحليل جوانب مهمة من أحوال اليهود في اسبانيا (قبل الفتح الإسلامي) و(إبان الحكم الإسلامي) و(بعد نهاية الحكم لإسلامي). والغاية من وراء ذلك تسليط الضوء على أوضاع اليهود في اسبانيا في ظل أنظمة الحكم التي مرت عليها. ظل اليهود تحت الحكم الروماني والقوطي نحو ستة قرون، وتحت الحكم الإسلامي الـ مدة نفسها، واقل منها بقرن تحت الحكم الملكي ثم الجمهوري .وتمتاز اسبانيا (شبه جزيرة ايبرية Iberian Peninsula) بأنها ارض مرتفعة، جافة، قليلة الأنهار، تقطعها الجبال الى جيوب معزولة، ومناخ مناطقها الشمالية شبيه بمناخ جنوب فرنسا(بلاد الغال)، أما مناخ القسم الجنوبي منها فشبيه بمناخ شمال افريقية [١]سكنتها قبائل الوندال (Vandals)، ثم سيطرت عليها قبائل القوط(Goths) التي نزحت من شمالي أوربا، وهذه القبائل(الوندال والقوط) تتشابه في الدين والعادات والأخلاق والتقاليد[٢]، مما يدل على أنها ترجع في الأصل إلى أرومة واحدة.وفي عام (٩٣هـ/٧١٢م) أصبحت شبه جزيرة أيبيرية بيد المسلمين بعد السيطرة عليها من قبل موسى بن نصير وطارق بن زياد. وقد استمر الوجود العربي حتى عام (٨٩٧هـ/١٤٩٥ م)، إذ انهي على يد الملك اراغون وزوجته الملكة ازابيلا. وهذه العهود الثلاثة التي عاشها اليهود في اسبانيا تظهر مدى تسامح المسلمين مع

اليهود، وصلاح أمر اليهود بدرجة لم تتحقق في العهدين الآخرين، بل ان اليهود عاشوا الغبن في المرحلة الأولى، والظلم في المرحلة الأخيرة.ان هذه الدراسة تفيد الباحثين والدارسين المعنيين بـ(الدراسات الأندلسية)، فتتبع اليهود وأثرهم في الحياة الأندلسية يعطي صورة واضحة في مجال الدراسات التاريخية والأدبية والاجتماعية ولاسيما في مرحلة الحكم الإسلامي للمساحة الواسعة التي حصل عليها اليهود على مختلف الصعد، فظهر منهم السياسيون والقضاة والشعراء والكتاب وغيرهم من طبقات النابهين هذا، ونحن لا ندعي الكمال وتمام الاستيفاء، بل نترك الباب مشرعة لمن يريد أن يزيد أو يعمل عملا مماثلا، راجين من الله تحقيق الفائدة من البحث، والله ولي العلماء والعاملين بإحسان.في تاريخ وصول اليهود الى اسبانيا واستقرارهم فيها اكثر من رأي؛ فيرى (عبد المالك التميمي)[٣] انهم هاجروا مع الكنعانيين (الفينيقيين) قبل الميلاد من بلاد الشام عن طريق سواحل شمال افريقية، ويبدو أن هذا الرأي بعيد بعض الشيء عن الصحة، من غير المتوترة عبر التاريخ بين الفينيقيين واليهود، علما أن اليهود لا يمكن أم يهاجروا بلا ضغط كبير من أماكنهم المقدسة، سواء كان هذا الضغط سياسياً او نتيجة عوامل طبيعية. ويرى كرايزل (Soloman Grayzel) أن أول اتصال بين اليهود وأوربا الغربية كان عبر روما سنة (١٦٠ ق.م)، وازدادت أعدادهم في القرن الأول قبل الميلاد إذ قدر عددهم بخمسين ألفا في مدينة روما، وتركز نشاطهم في الأعمال التجارية والحرف الصناعية بوصفهم باعة متجولين في معسكرات الجيش الروماني، ثم دخلوا اسبانيا بعد أن أصبحت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية[٤]. ولعل وصول اليهود وانتشارهم في مناطق كثيرة من العالم ومنها اسبانيا، يرجع الى الاضطهاد الذي تعرضوا له من قبل الإمبراطورية الرومانية التي هاجمت بيت المقدس (أورشليم) وهدمت معبد (هيكل سليمان) سنة

(٧٠م)[٥] بقيادة الإمبراطور تيتوس (Titus) (٤٠- ٨١م)، ثم تتبعهم في المناطق القريبة من بلاد الشام وشمالي شبه الجزيرة العربية ومصر وافريقية. أما اليهود داخل الإمبراطورية الرومانية التي كانت تدين بالوثنية، فقد اتسمت معاملتهم بالتسامح في

ممارسة معتقداتهم الدينية وأعفوا من تأليه وتقديس الإمبراطور[٦]، كما كانوا محميين من القانون الروماني بوصفهم مواطنين اعتياديين في المجتمع، ولم ينظر إليهم على أنهم غرباء بل مواطنون رومان. وكانوا في اسبانيا كثيري العدد بشكل استثنائي، وسيطروا على المراكز المهمة والرئيسة في المدن[٧]. وبعد صدور مرسوم ميلان الشهير سنة (٣١٣م) باعتراف الإمبراطور قسطنطين

(٣٠٥ـ ٣٣٧ م) بالديانة المسيحية (النصرانية) ديانة رسمية للدولة[٨]، ونقله عاصمة الإمبراطورية سنة (٣٣٠م) من روما القديمة على ضفاف التبير في ايطاليا الى بيزنطة (روما الجديدة– القسطنطينية) على ضفاف البسفور[٩]. وبعد أن أحرز قسطنطين انتصاره على منافسه ليسينيوس (Licinius) وما تبع ذلك من انضواء الشرق تحت لوائه، تغيرت معاملة اليهود عموما، ويرجع ذلك الى الموقف العقائدي الذي اتخذه اليهود من النبي عيسى (عليه السلام)، فضلاً عن مساعدتهم الإمبراطورية الرومانية في اضطهاد المسيحيين والتنكيل بهم[١٠]. وخلال الحكم القوطي الغربي (Visigoths)(٥٧٠-٧١١هـ) لأسبانيا، كانت معاملة اليهود جيدة، وسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية وحرية العمل[١١]، لكن ما لبثت معاملتهم أن أصبحت قاسية جداً وضيق عليهم بعد تغيير القوط مذهبهم الديني من الآريوسية الى الكاثوليكية في عهد الملك (ريكاردو) (Reccaredo) سنة (٥٨٧م)[١٢]، فصارت طليطلة مركزاً لأسقفية كبيرة يقيم فيها أسقف كبير يمثل البابا ونفوذه[١٣]، وأخذت المجامع اليهودية الطليطلية تقدم المشورة للملوك لسن القوانين القاسية ضد اليهود[١٤]، ومنها فرض الضرائب على الذين يشتغلون في التجارة والربا[١٥]، وبذلك تحول الاضطهاد الديني من المسيحيين أصحاب المذهب الكاثوليكي الى اليهود. وفي اثر ذلك اخذ اليهود يميلون الى العزلة في مجتمعات مستقلة، نتيجة للاضطهاد الشديد ولاسيما أن المجامع المسيحية الطليطلية استمرت في تضييق الخناق عليهم بإشراف البابوية، فأصدر المجمع الطليطلي الثالث سنة (٥٨٩م) قراراً يقضي بضرورة تعميد الأطفال الذين يولدون من زيجات يهودية – مسيحية

[١٦]، ثم اصدر الملك سيسبوت(شيشبرت) سنة (٦١٣م) قراراً يخيِر اليهود بين التنصر (اعتناق المسيحية) والهجرة من اسبانيا، وقد أيد المجمع الطليطلي السادس سنة (٦٣٨م) هذا القرار[١٧]، فاضطر الكثير من اليهود الى الهجرة، وتظاهر بعضهم الآخر باعتناق النصرانية، وهؤلاء هم الذين يسمون (اليهود المتسترين) (Juduizantes)، كما قرر المجمع الطليطلي الثامن ضرورة تعميدهم من جديد وامتحان نصرانيتهم بتقديم لحم الخنزير إليهم ليأكلوا منه لأنه محرم في الديانة اليهودية، ثم حرمت إقامة الشعائر الدينية اليهودية، وصودر ربع أملاك من ظل على اليهودية، كما لعن المسيحيون الذين يساعدون اليهود في إقامة شعائرهم وطقوسهم، فضلا عن طرد اليهود الموجودين في مدينة آربونة[١٨] الذين كانت لهم علاقة حسنة مع المسيحي وقد بلغ هذا التعسف مداه في أيام الملك (ايرفيج) إذ قرر تطبيق قرارات المجمع الطليطلي الثامن القاضية بإرغام اليهود جميعاً على التنصر (اعتناق المسيحية) وترك البلاد خلال عام واحد. وحاول بعضهم سراً القضاء على الدولة القوطية، فاكتشف القوط أمره، فقرر المجمع الطليطلي السادس عشر عدَّ اليهود جميعاً رقيقاً وتوزيعهم على المسيحيين وحرِم عتقهم، كما قرر المجمع فصل أولادهم عنهم وتنصيرهم، وتربيتهم تربية مسيحية، وان لا يتزوج العبد اليهودي إلا بجارية مسيحية ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني، واستثني من ذلك يهود مدينة سبتمانية[١٩]؛ لعدم اشتراكهم في المؤامرة التي حيكت ضد الحكم القوطي. وحاول أخيكا (Egica) (٦٨٧ . ٧٠٢م) أن يخفف الوطأة على اليهود، فأزال عنهم ما كانوا يلقونه من إرهاق، ولم يكد اليهود أن يتنفسوا الصعداء حتى بدؤوا يكيدون للقوط، ويتصلون بأبناء عمومتهم في المغرب، وحاولوا إغراء العرب بفتح اسبانيا فأدى ذلك الى تغيير موقف(اخيكا) ضدهم؛ فأصدر المجمع الطليطلي السابع عشر قراراً في سنة (٦٩٤م) يقضي بالعودة الى الاضطهاد السابق، وعدَّ اليهود خوارج على الدولة، وقضوا بان تنتزع أملاكهم في سائر اسبانيا وتحول الى أملاك العرش، وان يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدي للمسيحيين ويهبهم الملك عبيداً لمن يشاء ولا يسمح لهم باسترداد

حرياتهم ما بقوا على اليهودية، ولا يحرر أرقاؤهم إلا إذا اعتنقوا المسيحية بصدق وعندها يمنحون بعض أملاكهم[٢٠]. وكان لملك القوط قبل الأخير غيطشة (Witiza) موقف متسامح مع اليهود، وبالمقابل كان له موقف متشدد من رجال الدين المسيحيين[٢١]، ولكن لا يبدو أن لذريق(Rodrigo) الذي استولى على الحكم وعزل الملك غيطشة قبل الفتح الإسلامي بسنة[٢٢]، قد أعاد الاضطهاد السابق لليهود . وهكذا دأب ملوك القوط

(Goths) على استمرارهم بسن قوانين اشد قساوة من القوانين السابقة ضد اليهود وبتحريض من الكنيسة الكاثوليكية، على الرغم من أن زمناً طويلاً مر على اعتناقهم المسيحية، وليس من العجب أن نجد اليهود بعد ذلهم وإفقارهم ومنعهم من الوظائف الحكومية وأخيرا استعبادهم، يرحبون بالمسلمين ويؤيدونهم ضد القوط الغربيين، بعد أن فشلت كل المؤامرات التي قاموا بها للقضاء على الحكم القوطي. من هذا كله يمكن القول: أن اليهود دخلوا اسبانيا في نهاية القرن الأول قبل الميلاد، وكانت معاملة الدولة الرومانية (الوثنية) تتسم بشيء من التسامح، لكن بعد اعتراف الإمبراطور (قسطنطين) بالديانة المسيحية سنة (٣١٣م) ديانة رسمية للدولة، بدأت حملات الاضطهاد والتنكيل المسيحي باليهود، لكن خلال حكم القوط الغربيين لأسبانيا (٥٧٠-٧١١م) ازدادت معاملة اليهود قساوة، وضيق عليهم ولاسيما بعد أن غيَّر القوط مذهبهم من الآريوسية الى الكاثوليكية سنة (٥٨٧م). وبإشارة من البابوية كانت المجامع الكنسية المسيحية التي تعقد في اسبانيا تصدر المراسيم والقرارات التي تضطهد اليهود ومنها: فرض الضرائب الباهظة على تجارتهم، وحملهم على اعتناق المسيحية بالقوة، ومصادرة أملاكهم وتعميد أولادهم. ووصل الأمر بمجمع طليطلة السابع عشر (٦٩٤م) الى أن يصدر مرسوماً يقضي بنزع كل أملاك اليهود، وفرض الرق الأبدي عليهم للمسيحيين. وليس من العجب أن نجد اليهود يرحبون بالمسلمين ويؤيدونهم ضد القوط الغربيين، لاسيما بعد أن سمعوا بمعاملتهم الحسنة لأبناء جنسهم داخل ارض المسلمين وبالذات في شمالي إفريقيا، وفي اثر هذا الموقف

كافأهم المسلمون بعد الفتح(٩٢هـ / ٧٩٨م) بإشراكهم في حماية المدن التي يسيطرون عليها.

الهوامش

١- هادريل، والاس، أوربا في صدر العصور الوسطى، ص.١٤٨

٢- عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس (العصر الأول)، ص .٢٥

٣- اليهود والصهيونية في المغرب العربي ، المجلة (العربية للعلوم الإنسانية) ، ع٤،ص.١١٩

٤- .History of the Jews(NewYork:١٩٦٨) pp.٢٦٥_ ٢٦٦.

٥- يوسفوس ، فلافيوس، تاريخ الحروب اليهودية، ص٢٠٣. .٢٠٧

٦. عاشور، سعيد عبد الفتاح، أوربا العصور الوسطى،ج١،ص.٣٦

٧. هادريل ، أوربا ، ص.١٦٣

٨. عاشور ، أوربا العصور الوسطى، ص٢٧..٣٩

٩-Grayzel: History, p٢٧٠.

١٠- عاشور، أوربا الوسطى، ص٢٧-.٣٩

١١- Grayzel: History, p٢٧٠.

١٢- Ariunism نسبة الى آريوس (Arius) (٢٥٠-٣٢٦م) وهو احد رهبان الإسكندرية، خالف الكنيسة الكاثوليكية بقوله: أن السيد المسيح ليس من جوهر الله ولا يشاركه في الأزلية، وقد حرمت (الآريوسية) بموجب مجمع نيقية سنة (٣٢٥م) وعدت حركة هرطقية.

١٣. كرباج، جورج، عناصر المجتمع الأندلسي عند الفتح العربي، مجلة (آفاق عربية) ع١١،ص٣٨..٤٥

١٤- بدر، احمد، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح الى الخلافة ص.٩٠

١٥. بيضون، إبراهيم، الدولة العربية في اسبانيا،ص .٦٢

١٦. هادريل، أوربا، ص .١٦٣

١٧. عنان، دولة الإسلام، ص .٢٩

١٨ـ مؤنس، حسين، فجر الأندلس (القاهرة :١٩٥٩م) ص٥٢٢؛ سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص.٦٥

١٩. مؤنس، فجر الأندلس، ص٢٢٣، ؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص.١١٣

٢٠. مؤنس، فجر الأندلس، ٥٢٢-.٢٢٣

٢١. ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،ج٢،ص.٤

٢٢. مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص٥.